

مفهوم العبادة

العبادة هي الطاعة والامتثال، وسُمِّيَتْ بذلك؛ لأن الذي يتقرب بما أطاع الله به يكون ذليلا، فَكُلُّ مَنْ تَعْدِدُ لِللهِ تَعَالَى إِنْ عَلَيْهِ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ، وَأَنْ يَخْصُّنَ لَهُ، وَأَنْ يَتَذَلَّلَ؛ فَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الْأَقْوَالُ وَالْأَفْعَالُ. فَالْأَقْوَالُ إِذَا دَعَوْتَ اللَّهَ دَعْوَتْهُ وَأَنْتَ مَتَذَلِّلٌ، هُوَ التَّعْدِيدُ. إِذَا ذَكَرَ اللَّهَ ذَكْرَهُ وَأَنْتَ مَتَذَلِّلٌ؛ يَعْنِي مَتَخْشِعٌ وَمَتَخَضِعٌ، وَخَاضِعٌ وَخَاشِعٌ، ذَلِيلٌ لِللهِ تَعَالَى. إِذَا تَلَوَّتْ كِتَابَ اللَّهِ صَارَ ذَلِكَ مِنْكَ حَالٌ التَّخْشِعُ وَالتَّذَلُّلُ وَالْخَضُوعُ. وَهَكُذا بِقِيَةِ الْأَقْوَالِ. وَأَمَا الْأَفْعَالُ فَكَذَلِكَ. مِثْلًا الَّذِي يَؤْدِي هَذِهِ الصَّلَاةِ، إِذَا أَدَاهَا وَقْلِبَهُ مُتَكَبِّرٌ، وَرَافِعٌ رَأْسَهُ مُتَعَالٌ عَلَى غَيْرِهِ، فَمَاذَا تَكُونُ حَالَتَهُ؟ مَا تَقْبِلُ عِبَادَتَهُ، لَا بَدَأَهُ يَؤْدِي الصَّلَاةَ وَهُوَ خَاشِعٌ خَاضِعٌ مَتَوَاضِعٌ مَتَذَلِّلٌ، لَا يَرْفَعُ نَفْسَهُ، وَلَا يَشْمَحُ بِأَنْفَهُ، وَلَا يَتَعَالَى عَلَى عِبَادِ اللَّهِ، وَلَا يَتَكَبَّرُ عَلَى رَبِّهِ، وَلَا يَتَكَبَّرُ عَلَى اللَّهِ. إِذَا كَانَ ذَلِكَ فِي أَنَّهُ مِنَ الْمُتَبَدِّلِينَ. وَلِأَجْلِ ذَلِكَ اللَّهُ تَعَالَى لَا يَرْضِي أَنْ يُشارِكَهُ أَحَدٌ فِي هَذِهِ الْعِبَادَةِ الَّتِي هِيَ الْكَبِيرَيَاءُ. الْكَبِيرَيَاءُ لِلَّهِ تَعَالَى مِنْ أَسْمَائِهِ الْمُتَكَبِّرِ، فَالَّذِي يَتَكَبَّرُ عَلَى اللَّهِ يُعَذِّبُهُ اللَّهُ؛ وَقَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الْقَدِيسِ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: {الْعَظِيمُ إِزَارِيُّ، وَالْكَبِيرَيَاءُ رَدَائِيُّ، فَمَنْ نَازَعَنِي فِيهِمَا عَذِبَتِهِ - أَوْ عَذِبَتِهِ بَنَارِيِّ - }. فَلَا تَكُونُ الْعِبَادَةُ عِبَادَةً إِلَّا مَعَ التَّوَاضِعِ، وَمَعَ التَّذَلُّلِ، وَمَعَ الْخَضُوعِ. الصَّلَاةُ الَّتِي هِيَ مِنْ أَظْهَرِ الْعِبَادَاتِ الْمُصْلِيَّ فِيهَا مَامُورٌ يَأْنِي يَكُونُ خَاشِعًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ} بِخَلْفِ الْمُتَرَفِّ، وَالْمُتَكَبِّرِ؛ وَلِأَجْلِ ذَلِكَ الْمُصْلِيُّونَ إِذَا صَفَّوْا فِي صَلَاتِهِمْ؛ إِذَا صَفَّوْا فِي الصَّفَوْفِ؛ فَلَا يَكُونُ هُنَاكَ فَرْقٌ بَيْنَ أَمِيرٍ وَمَامُورٍ، وَبَيْنَ فَقِيرٍ وَغَنِيٍّ، وَبَيْنَ رَئِيسٍ وَمَرْءَوْسٍ، بَلْ كُلُّ مُسْتَوْنَ فِي هَذِهِ الْعِبَادَةِ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَنْظَرُ إِلَيَّ مَوْضِعَ سُجُودِهِ خَاصِّاً، كُلُّ وَاحِدٍ فِي حَالَةِ قِيَامِهِ مَتَوَاضِعًا مُتَخَشِّعًا. إِذَا رَكِعَ تَذَكَّرُ أَنَّ هَذِهِ الرُّكُوعُ لِلتَّذَلُّلِ، وَإِذَا سَجَدَ تَذَكَّرُ أَنَّ هَذِهِ السُّجُودُ تَذَلُّلٌ وَخَضُوعٌ لِلَّهِ؛ حِيثُ إِنَّهُ يَضْعِفُ وَجْهَهُ الَّذِي هُوَ أَشْرَفُ أَعْصَانَهُ عَلَى الْأَرْضِ، وَذَلِكَ غَايَةُ الْعُبُودِيَّةِ، وَغَايَةُ الْذُلِّ، فَهَذَا مَعْنَى كُونِ إِنْسَانٍ عَبْدًا وَعَابِدًا، يَكُونُ ذَلِكَ فِي كُلِّ الطَّاعَاتِ. الطَّاعَاتُ الَّتِي يَتَقْرِبُ بِهَا. إِذَا تَقْرَبَتْ بِالصَّدَقَةِ تَقْرَبَتْ بِهَا وَأَنْتَ تَشْعُرُ بِذُلُّ نَفْسِكَ، وَبِصَغَرِ نَفْسِكَ، وَبِحاجَتِكَ إِلَى رَبِّكَ؛ فَتَتَوَاضَعُ لِلَّهِ وَتَرْجُو ثَوَابَهِ. إِذَا تَقْرَبَتْ مِثْلًا بِالطَّوَافِ، تَقْرَبَتْ بِهِ فِي حَالَةِ كُونِكَ خَاشِعًا خَاصِّاً مَتَوَاضِعًا مُهْطِعًا مُقْبِعًا رَأْسَكَ؛ تَذَكَّرُ أَنَّ رَبِّكَ هُوَ الَّذِي أَمْرَكَ بِهَذِهِ الْعِبَادَةِ، وَتَذَكَّرُ أَنَّهُ يَنْظَرُ إِلَيْكَ، مَاذَا تَكُونُ حَالَتَكَ؟ لَا شَكَ أَنَّ هَذِهِ أَمْثَلَةُ الْعِبَادَةِ. كُلُّ أَنْوَافِ الطَّاعَةِ مِنَ الْعِبَادَةِ، اللَّهُ تَعَالَى مَعْبُودٌ، لَيْسَ لَكَ مَعْبُودٌ سَواهُ، فَلَا تَتَوَاضَعُ لِغَيْرِهِ، وَلَا تَعْبُدُ إِلَّا إِيَاهُ، وَلَا تَتَذَلَّلُ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ، هَذَا مَعْنَى الْمَعْبُودِ: كُلُّ الْخُلُقِ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ. وَهُوَ مَعْبُودٌ لَيْسَ لَيْ مَعْبُودٌ سَواهُ.